ثم نجده ، بعد ذلك ، أو مع ذلك ، يجعل نفسه عيناً للعثمانيين على الفرنسيين وعلى المصريين . ينقل لهم الأخبار ، ويمدهم بما يحتاجونه من أنباء الحوادث والرجال ، يرسله لهم سرّاً ضد الفرنسيين ، وفى غفلة منهم .

مثل لعلماء العصر

هذه خلاصة موجزة ، ولكنها دقيقة صادقة ، عن علماء ذلك العصر الذى أرّخه الجبرتى . ونحن نجد من بين هؤلاء العلماء الذين قسا عليهم قسوته البالغة . أسماء كبار العلماء الذين كانوا يتمتعون بالجاه ، والمكانة الرسمية ، والشعبية أيضاً . فى تلك الأيام . من أمثال الشرقاوى ، والمهدى ، والبكرى ، والسادات .

وهذا الشيخ الأخير سنفرد له ترجمة خاصة صغيرة . لسببين : الأول غرابة هذه الحياة التى كان يعيشها هذا الشيخ . وبُعد أهدافه عن الغايات والأهداف التى يسعى إليها العلماء عادة . والثانى أن الترجمة للشيخ السادات تصور لنا ، إلى حد بعيد ، حياة كبار العلماء الرسميين فى فترة من تاريخ مصر . وأعتقد أن هذه الصورة ستبدو غريبة لدى كثيرين من الناس ، وبعيدة عما كانت تصوره لهم أمانيهم ومعتقداتهم التقليدية فى العلماء . وقد تحدثنا من قبل حديثاً طيباً عن السادات . وكأن الشيخ كان ذا شخصية مزدوجة ، فيها من الخير شىء كثير . ومن غيره أيضاً شىء كثير .

هو شمس الدين ، محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن . كان كريم الأب والأم ، فأبوه الخواجا عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف بن وفا . تربى مع أخيه الأكبر ، يوسف ، فى سيادة ، وصيانة ، وحشمة . وتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، وسلك طريق أسلافه السادات ، على خاله ، وعلى الشيخ عبد السلام العفيفى ، وغيرهما ، وحج فى سنة ١١٧٩ . وكان قد سعى لمشيخة السادات ، فلم ينلها ، فأراد أن يسرّى عن نفسه بالحج . وكان مما فعله ، لينال مشيخة السادات ، أن تزوج والدة شيخ هذه

السجادة ، الشيخ محمد أبى هادى ، وكان قد توفى ، ونازعه عليها من هو أولى بها منه . ولما توفى هذا المنازع ، ركب فى صباح اليوم الذى مات فى ليلته ، قاصدا على بك الكبير ، فخلع عليه الخلعة . وقد نال الشيخ السادات هذه المشيخة ، وأبعد عنها أخاه ، مع أنه أكبر منه ، بالحيلة والمخادعة ، والتحبب إلى أرباب المظاهر ، واستجلاب الخواطر .

وبعد توليه المشيخة ، كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء . ولكن شغله الأكبر كان فى تحصيل المال . وإتقان الأساليب التى ينمى بها أمواله . وكان ، مع كثرة ماله ، يبخل بدفع ما عليه ، مهما كان قليلا ، حتى الضرائب المفروضة .

ولما انقرضت طبقة الشيوخ الذين يهابهم ، التف حوله الباقون وبالغوا فى مدحه ، وتملقه ، وتقبيل يديه ، وإنشاء القصائد فى مناقبه ، ليستفيدوا من جاهه ولتكون لهم بذلك قربى عند أصدقائه من أصحاب النفوذ . وقد زاد ذلك من كبريائه وغروره . حتى بلغ به الأمر إلى حد أنه لا يقوم لقدومهم ، وإذا اقترب أحدهم منه قدر ذراعين ، ضم ثيابه تأدبا ، ثم حبا على ركبتيه ، ومد يمناه ليقبل يد الشيخ ، أو طرف ثوبه . هؤلاء كبار الشيوخ ، أما غيرهم فإنهم لا يطمعون فى تقبيل يده ، بل يقبلون طرف ثوبه . فإذا انصرف الناس عنه ، غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم وشفاههم ، من أثر التقبيل . وكان يقتصر فى رد التحيات المتعالية له على قوله : «خير ، خير» وينقضى مجلسه كله ، مهما طال ، فى الحديث عن أهل مصر وذمهم . وغيبة أهل العصر . وتستريح نفسه لذلك كثيراً .

واستطاع بوساطة الوالى محمد باشا العزّتى ، أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من خزينة مصر ، لينفقه فى إصلاح بعض زاويا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها . أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تكن منها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب ، وأنواع الرخام الملون ، والأعمدة الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع ، وقصرا لجلوسه ، ومكانا لإقامة حريمه . وبعد ذلك أرسل الشيخ السندوبى إلى دار الخلافة ليرفع عنه الضرائب المفروضة على بلدة « زفتا » وغيرها

مما كان يملكه ، فرفعت عنها . وزاد هو فى الضرائب التى كان يتقاضاها من فلاحيه ، وكان يسجنهم ، ويضربهم بالكرباج ، إذا لم يوفوا ما فرضه عليهم .

واتفق مع السيد محمد البكرى، على أن يترك له نظارة المشهد الحسينى على أن يترك للبكرى نظارة الإمام الشافعى . فلما سلمه البكرى سجلات النظارة الأولى واستولى عليها فعلا ، نكث ولم يسلمه الثانية ، واستبقى تحت نظارته النظارتين .! بل طمع فى غيرهما بمساعدة أصدقائه من الأمراء ، فنال نظارة ضريحى السيدة زينب ، والسيدة نفيسة وغيرهما ، من الأضرحة الكثيرة الإيراد .

وكان يحاسب خدم هذه الأضرحة ، وينا كدهم على النذور منا كدة شديدة شاقة ، ويضربهم بالجريد على أرجلهم . وضرب كبيرا منهم كان محترما ، مهيبا ، واستولى على بيته قهرا ، وهدمه ، وبنى مكانه بيتا له . لذلك خشوا بأسه جميعاً ، وخافوا من بطشه فكانوا يسلمون إليه كل إيراد الأضرحة ، من النذور ، والشموع ، والأغنام ، والعجول ، حتى « كان يأخذ المال من الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » .

واستطاع أن يصل إلى شهود القضاء ليؤثر عليهم فى الشهادة عن الحجج التى تؤول الأوقاف فيها إلى الأضرحة التى يتنظر عليها . وكان يضرب بعض الشهود ، ويجبر بعض مستحقى الأوقاف على مصالحته بأموال يدفعونها إليه ليمكنهم من حقوقهم . وقد أبطل بعض حجج الأوقاف ، ومحاها من سجل القاضى ، حتى يصالحه أصحابها على ما يطلب .

وبلغ من تعاظمه ، وخشية الناس من سطوته ، أن خطيب المسجد الحسينى كان يبالغ فى إطرائه ، وذكر مناقبه ، والتوسل بجاهه عند الله ، ويذكر ذلك فى خطبة الجمعة ، جاعلا من الشيخ وسيلة إلى الله ، ليفرج به الكروب ، ويغفر الذنوب . حتى قال بعض المصلين : لم يبق إلا أن يقول الخطيب اركعوا واسجدوا ، واعبدوا الشيخ السادات ... !

وقد سعى ، لينال نقابة الأشراف بغير حق ، بالوقيعة ، والكذب ، بين

محمد على ، والسيد عمر مكرم ، وحرضه على إخراجه من مصر . ونال بذلك بغيته ، وكان قبل ذلك حصل على فرمان من الدولة بتوليته هذه النقابة ، وأخفى هـذا الفرمان حتى مات النقيب ، السيد محمد البكرى ، فأبرز الفرمان . ولكن الأشراف لم يرضوا بنقابته ، ولم يمكنوه .

وأنشأ دارا عظيمة له ، جعل فيها رواشن ، وسواقى ، وبستانا عامرا بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتا لبعض الأمراء ، كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة ، وبستان متسع ، فقهرهم على بيع البستان له بثمن بخس ، وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطا كبيرا حجب النور والهواء عن بيت البكرى ، حتى باع له البيت أيضا ، بثمن قليل .

ويقول الجبرتى بعد ذلك : إن « الشيخ السادات أفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك ، والعبيد ، والجبوس ، والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة . وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه ، حتى إنه ترفع عن لبس التاج ، وحضور ليلة المعراج فى الأزهر ، وكذا الحضور فى مجلس نقابتهم . وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء » ثم يقول : إنه « كلما طال عمره ، زاد كبره ، وقلّ بره ، وكثر شره . ولما كبرت سنه ، تعاظم عن القيام لأعاظم الناس ، ولازم استعمال المنعشات ، والمركبات المفرحة » .

وفى اليوم الثامن عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٨ — مارس ١٨١٣ — مات بعد مرض غير قصير . وأوصى ببعض أمواله لخاصته . وأن يغسل على سريره الهندى الذى كان ينام عليه . وأرسل خبر موته إلى محمد على ، وكان فى الفيوم ، فأمر بأن تقفل خزائنه . وبيوته ، حتى يعود . وأن يقبض على كاتب حساباته ، عبد القدوس القبطى . وأسرع محمد على بالعودة إلى مصر . فذهب إليه العلماء متشفعين بحرمة بيوتهم ، وأن العادة لم تجر بمصادرة أموالهم

فهم أهل للتكريم والرعاية . ولكن محمدا عليا راوغهم أياما ، ثم قال لهم . إن الشيخ كان ، كما تعرفون ، طماعا ، جماعا للمال . وكان لايحب أهله ، ولا يخصهم بشيء وكتب ماتركه ، وهو شيء كثير جداً ، لزوجه . وهى جارية اشتراها بثمن قليل ، ولم يكتب شيئاً لأولاد أخيـــه . وخزانة الدولة أحق بهذا المال .

ثم انتهى الأمر بأن صالحت زوج الشيخ على تركته . بأن دفعت لمحمد على ألف كيس وخمسة وخمسين[1] . وترك لها محمد على ، مابقى من تركته .

ولكنا نجد بعد هذه الصورة البعيدة عن صفات العلماء ، صورة أخرى من حياة الشيخ هى موقفه من ثورات القاهرة ضد نابليون . وهى ، كما راها فى مكانها ، كفيلة بأن تشرفه . وأن تغفر له شيئاً من هذه السيئات التى أجملنا ذكرها هنا . كما نجد فى مواضع أخرى مواقف له فيها شجاعة فى الحق وبأس .

مثل كريم للعلماء

ولعل من الخير ، وقد أوردنا هذه الصورة من حياة العلماء الرسميين فى ذلك العهد ، بترجمة الشيخ السادات ، أن نورد صورة أخرى كريمة ، مشرفة لعالم كبير من علماء ذلك العصر . لم يتاجر ، ولم يقض حوائج الناس بالرشوة ، ولم يزور فى الأقضية وحجج الأوقاف ، ولم يقتن مالا ولا أرضا ولا بيتا ، ولم يأكل حقوق الضعفاء من خـدم المساجد ، ولم يجعل من بيته دارا لتعذيب الفلاحين وجلدهم حتى ينال منهم المال ، حلالا وغير حلال ، ولم يسع إلى الحكام لينال منهم التزاما ، أو ليعفى من ضريبة . بل كان ، كما ترى من ترجمته ، مثلا كريما لعالم الورع ، المتدين ، الوقور ، الذى يذكر الله ويخشاه .

الشيخ محمد الحفنى ، أو الحفناوى ، أوحد أهل زمانه علما وعملا ، شريف ينتهى نسبه ، من جهة أمه ، إلى الإمام الحسين . ولد فى سنة ١١٠٠ فى بلدة حفنا ،

---

(١) نحو خمسين ألف جنيه

من أعمال بلبيس بالشرقية . وحفظ بعض القرآن فى قريته ، كما يحفظه أمثاله ، ثم قدم القاهرة ، فأشار بعض الشيوخ على أبيه أن يبقيه فيها ، فأتم بها حفظ القرآن ، ثم اشتغل بالعلم ، وتلقاه على كبار علماء عصره .

وجلس بعد ذلك للتدريس ، فتزاحم عليه المستفيدون والطلبة . وكان فى ضيق من العيش . فاشترى دواة ، وأقلاما ، وأوراقا . واشتغل بنسخ الكتب . فشق عليه ذلك ، لأنه صرفه عن العلم والإفادة . واتصل خبر ذلك برجل كريم ، يحب العلم . فبينما الشيخ قد فرغ من درسه وهمّ بأن يغادر مكانه ، ناداه رجل وطلب أن يختلى به . ثم سار معه حتى دخل المدرسة العينية . ثم جلسا ، فأخرج الرجل محرمة ملأى بالدراهم وقال للشيخ : ياسيدى إن فلانا يسلم عليك ، وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ، ويريد أن يحظى بقبولها . فأخذها منه وفتحها ، وملأ كفه من الدراهم يريد أن يعطيها لهذا الرسول فامتنع ، وحلف لا يأخذ منها شيئاً .

وذهب الشيخ إلى بيته ، فكسر الأقلام ، والدواة ، وتفرغ للعلم ، وإلقاء الدروس . وقد صرفه ذلك عن التأليف ، فلم يكثر منه . ثم مال إلى التصوف ، فتلقى على السيد الصديق البكرى أسرار الطريقة الخلوتية . وصار من أقطابها الذين يقصدهم الناس من مصر وأقطار الأرض . وهادته الملوك ، وذهب إليه الأمير والصعلوك . وصار له ، فى كثير من قرى مصر ، نقيب وخليفة ومريدون وأتباع ، وأسلم على يديه كثير من الناس . وسافر إلى بيت المقدس فأقام بها أربعة شهور ، ملازما شيخه البكرى . واختير الشيخ الحفنى ، عضوا فى ديوان الحكومة . فكان فيه مدافعاً عن حقوق الشعب ، قوياً فى معارضته للأمراء ، والولاة . وفى مقاومة ما لا يعتقده خيراً ولا صواباً من التصرفات ، والقرارات ، والآراء .

وكانت للشيخ الحفنى مهابة عظيمة ، لا يستطيع كثير من جلسائه أن يتوجه إليه بسؤال ، لمهابته وجلالته . وكانت على إحدى عينيه نقطة ، ومع ذلك فإن أكثر الناس لم يدركوا ذلك ، لأنهم يغضون الطرف ، عند النظر إلى وجهه .

وكان كرمه فائق الحد ، ليس للدنيا عنده قدر ، ولا قيمة . لو سأله إنسان أعز شىء عنده ، أسرع فأعطاه له ، ويجد فى ذلك سروراً ، وانشراحاً . له صدقات ،

ظاهرة وخفية . وراتب بيته من الخبز ، فى كل يوم ، نحو إردب ، وطاحون البيت دائم الطحن ليلا ونهارا ، وكذلك مدقّات البن والسكر . يجتمع على مائدته الخمسون ، والستون ، وينفق على بيوت أتباعه والمنتسبين إليه « وكل من طلب شيئاً من أمور الدنيا ، أو الآخرة ، وجده عنده » .

كما كان كريم الخلق ، حليما ، جميل السجايا ، يصغى لكل متكلم ، ولو تكلم بالخزعبلات . مظهراً له سروره ومحبته .

أما شجاعته فى الحق ، وجرأته على أصحاب القوة والجاه والنفوذ . فقد روينا طرفا منها أول هذا الفصل . كما فصل الجبرتى كثيراً منها فى مواضع متفرقة كثيرة . حتى قال راغب باشا ، أحد ولاة مصر : إن الشيخ الحفنى سقف على أهل مصر ، يمنع عنهم نزول البلاء . وكان ، كما يقول الجبرتى : لا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه ، وإذنه .

وكان فى كل ذلك ، يقف دائما إلى جانب الحق ، ناصراً للشعب على حكامه . منصفاً للمظلوم من ظالمه . معيناً للضعيف . وقد تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشبراوى الذى مات فى ذى الحجة سنة ١١٧١ .

وكان إلى علمه وتصوفه ، وزهده ، وكرمه ، ظريفاً وشاعرا يقول الشعر ، والمواليا .

كان له رفيق شاعر ظريف ، اسمه الشيخ حسن شمه ، جلسا يوما فى متنزه ، وكان رفيقه يكتب ، فسأله الشيخ ماذا يكتب ..؟ فقرأ عليه هذا البيت من المواليا :

قالوا : تحب المدمس . . ؟ قلت بالزيت حار

والعيش الابيض ، تحبه ..؟ قلت : والسكشكار

فضحك الشيخ وقال له : أما أنا فلا أحبه بالزيت حار ، بل بالسمن .

وأنشـــد :

قالوا تحب المدمس . . ؟ قلت بالمســـلى

والبيض مشوى ، تحبه . . ؟ قلت والمقلى

وله أيضا هذه المواليا : —

بحيـاة ، ياليل ، قوامك ، وصوم الحر

تحجز لنا الفجر . دا ُفوت الرفاقة مرّ

لـما يجى الفجر ، يصـبح وكبهم منْجر

أزداد لوعة ، ولا عمرى بقيت أنسـر

وله أيضاً :

إن جدْت ، أو جرت ، أو صدّيت ، أو جافيت

أو ِحلت ، أو ملت ، أو واصلت ، أو وافيت

أنت الحبيب الذى ، فى القلب ، قد حليت

وأنا ، على العهد ، ما خنتك ، ولا اختليت

وقوله :

خطر عليّـا غزالى ، مرّ ما اتـكلم . . .

فوّق جفونه ، وقلبى والحشـا ، كلم

إيش كان يضرّه إذا ، بالراس ، لى سـلم

حتى أسرْ مهجتى ، لولا السـلام سلم

ومن شعره :

لو فتشـوا قلبى لألفوا به سطرين ، قد خطا بلا كاتب

العـلم والتوحيد فى جانب ، وحب آل البيت فى جانب

وهذان البيتان من شعره ، يمثلان حياته إلى حد كبير . فقد كان عالما كبيراً ، ومتصوفاً مؤمناً طاهر السريرة .

ومن شعره فى التصوف :

أأظما ، وأنت العذب ، فى كل منهل . . . ؟

وأظلم فى الدنيـا ، وأنت نصيرى . . . ؟

خبـــير بضعفى ، راحم لشكايتى

قدير على تيسير كل عسير ....

وعارٌ على راعى الحمى ، وهو فى الحمى ،

إذا ضاع ، فى البيـــدا ، عقـال بعير

وله هذان البيتـان الرقيقان اللذان يفيضان يسرا ، وإيماناً ، ورضاً ، وصفاء ، وروحانية :

خـــبزٌ ، وماء ، وظل هو النعــيم الأجــل

جحدتَ نعمـــة ربى إن قلت : إنى مقـــل

وكان إلى ذلك ، عالما متبحراً فى علوم الفقه الشافعى ، والنحو ، والأصول ، والحديث ، والتوحيد

وقد عمر الشيخ طويلا ، حيث توفى ظهر يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١١٨١ ودفن يوم الأحد . بعد أن صلى عليه فى الأزهر ، فى مشهد عظيم جداً . وكان يومُ وفاته يوم هول عظيم .

ويقول الجبرتى : إنه ، بعد وفاة الشيخ الحفنى ، ابتدأ نزول البلاء ، واختلال أحوال مصر لأنه لم يوجد ، بعده ، من يصدع بالحق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقيم الهدى .

وقد جعلت شدة الشيخ الحفنى على الأمراء ، والولاة ، ووقوفه فى وجههم . جعلت هذه الشدة الناس تشك فى أسباب موته . حيث ذكر الجبرتى ، فى أكثر من موضع ، أن الأمراء « أشغلوا الأستاذ وسموه . وعند ذلك لم يجدوا مانعاً ، ولا رادعا » . ويذكر الجبرتى ذلك بصيغة التشكيك . وقد وضع شيخان من شيوخ عصره كتابين فى سيرته ومناقبه . هما صديقه الشيخ حسن المكى ، المعروف بشمه ، والشيخ محمد الدمنهورى الهلباوى . وقيلت فيه مدائح كثيرة .

أزهرى يصف قومه

ولم يكن الجبرتى وحده الذى قسى هذه القسوة الشديدة ، التى أشرنا إليها من قبل ، على علماء عصره . فهذا شاعر كبير من شعراء العصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى — وهو أزهرى — يقول فى العلماء هذا الشعر : —

عن علماء عصرك لا تسألن ... فإن أحوالهم ظاهرة
نفسك من جانبهم ، منتفٍ ... فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطمع ... تسارعوا ، كالأكلب العافرة
والعمل الصالح ما بينهم ، ... همتهم ، عن فعله ، فاترة
فجانباً حِدّ ، عنهم ، تسترح ... إذ قربهم صفقتك الخاسرة

ونحن نروى ، عن الجبرتى هذا الشعر ، كما هو ، لما فيه من رأى فى علماء ذلك العصر ، ولا نتعرض لقيمته ، ولا لوزنه أصحيح هو أم مكسور .

ويقول الحسن البدرى أيضاً فى أهل الأزهر : —

الجامع الأزهر ابتلاه ... رب ، له العز والوجود
بكل فظ ، قحف ، وطرف ... عليك بالبشر ، لا يجود
قطعة صخر ، أليس فيه ... الثقل ، واليبس ، والجمود ؟
عمائماً كبّروا ، وكُمّاً ... قد وسعوه ، لكى يسودوا
وتحت آباطهم روايا ... تسعين كراسا ، او تزيد
بها يميلون حيث مالوا ... لأجل مالٍ لهم تصيد
لولاهم مالت السوارى ... كل عمود له عمود
تزويرهم شاع فى البرايا ... سيان الأحرار ، والعبيد
حتى غدا حرفة وفخرا ... ما عنه بد ، ولا محيد
صلوا ، وصاموا ، والليل قاموا ... والقلب ، عن كل ذا ، بعيد

وهناك شيخ للأزهر كان له طابع خاص ، وميل للتجديد ، هو الشيخ حسن العطار . وتجد ترجمته فى الجزء الخاص بالحياة الفكرية والاجتماعية[1] .

(١) صفحة ٤٨ — ٥٤ من الجزء الأول .

وأما الأزهر ، كمعهد للعلم ، أو الثقافة ، أو المعرفة ، وكجماعة من الناس ، لها بيئتها الخاصة ، وحياتها الخاصة . ولها كذلك مكانها الخاص بين الناس . فقد أولاه الجبرتى عناية كبيرة . فوق هذه العناية التى أولاها لتراجم رجاله .

أما العلم ، والثقافة والمعرفة ، فنستطيع أن ندرك مكانها ، وقيمتها ، فى أزهر ذلك العصر ، من معرفة الكتب التى كانت تدرس وتتداول فيه ، إذ ذاك . ومن معرفة المؤلفات التى صدرت عن رجاله خلال هذه الفترة التى أرخها الجبرتى .

وهذه الكتب كلها ، والمؤلفات أيضاً . كانت من الكتب التقليدية - التى تلتزم التقليد . وتتسم بسمة التزمت ، وضيق الأفق . إلى جانب العناية باللفظ والاهتمام به أكثر من الاهتمام بالمعنى ، أو بالعلم ذاته . وكان أبرز ما تعنى به ، الإختصار . فهناك المتن . وهذا « المتن » الموجز له شرح ، والشرح له حاشية ، والحاشية عليها تقرير ، أو هامش . وكان العلم ، والبحث ، والتدريس ، والتقرير ، كل ذلك يدور حول ما فى هذه المتون والشروح والحواشى والهوامش ، ولا يمكن أن يتعداه إلى فكرة جديدة أو رأى أو بحث موضوعى . فإذا هبت على حياة مصر العقلية ، أو الدينية ، فى ذلك العصر ، نسمة من ريح الفهم ، أو الإدراك ، أو التخفف من رق التقليد ، كما رأينا فى قصة الواعظ الرومى[1] ، فإن هذه النسمة الرقيقة تكون بعيدة عن الأزهر . لأنه لا يحتملها ، ولا يبقى عليها .

فالكتب التى كانت تدرس فى الأزهر إذ ذاك . هى الكتب التى مازال الأزهر يعرفها كلها أو جلها إلى الآن . والمؤلفون والشراح هم كذلك معروفون عند أهل الأزهر الآن . فكتب المنهاج ، والتحرير ، والدر المختار ، فى الفقة . والأجرومية . وشرح الشيخ خالد عليها ، والألفية ، ومتن القطر ، فى النحو . وإيساغوجى ، والسمرقندية ، فى المنطق . والجوهرة فى التوحيد . وشرح السعد وحاشية الدسوقى عليه ، فى البلاغة . كانت أكثر الكتب تداولا . وأسماء ،

---

(١) نجدها فى الجزء الأول من الكتاب ص ٩٧ — ١٠٠ .

البحيرى ، والشرقاوى ، والدردير ، والعدوى ، واللوى ، والجوهرى ، والصبان والبرماوى ، والأمير ، والباجورى ، والشنوانى . كانت أكثر الأسماء شهرة وذيوعاً .

وهذه كتب ، وأسماء ، لقينا منها ، فى دراستنا فى الأزهر ، مالقينا . وأفدنا منها أيضاً .

ونستطيع ، ونحن نسرد أسماء بعض مؤلفات الأزهريين ، فى ذلك العصر ، أن نعرف أذواقهم الأدبية ، أو الفنية . وأن نعرف ، إلى حد كبير ، قيمة هذه المؤلفات ، وما تناولته من موضوعات .

فمن مؤلفات هذا العصر نجد أسماء : مراقى الفرج من مدح على الدرج والدر النظيم ، فى تحقيق الكلام القديم . واللمعة الألمعية ، وإتحاف الأحبة ، فى الضبة . (أى ضبة الباب المفضضة) . والدر المنثور ، فى الساجور[1] ، ومطلع النيرين ، فيما يتعلق بالقدرتين . وإتحاف الإنس فى الفرق بين اسم الجنس ، وعلم الجنس . ورفع التلبيس ، عما يسأل عنه ابن خميس . وكتاب فى التراجم ، سماه صاحبه ، الشيخ مصطفى الحموى : — فوائد الارتحال ونتائج السفر ، فى أخبار أهل القرن الحادى عشر . ومن هذه الأسماء : كوكب الصبح ، فى إزالة القبح . وفتح الملك المجيد لنفع العبيد . وفتح الملك البارى بالكلام على آخر شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصارى .

ومن مؤلفات علماء الأزهر فى ذلك العصر ، كتاب للشيخ عبد الله الشرقاوى وهو ، كما رأينا ، من كبار العلماء وشيوخ الأزهر ، اسمه : تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . وقد وصف الجبرتى هذا الكتاب بأنه « فى غاية البرود . وقد غلط فيه غلطات » ونجد ذكرا لهذا الكتاب فى موضع آخر من كتابنا[2] وللشيخ الشرقاوى مؤلفات مطولة فى الفقه الشافعى لايزال أهل الأزهر يعرفونها إلى اليوم .

وقد كانت تدرس فى الأزهر ، طبعاً ، إلى جنب هذه الكتب كتب

---

(١) فى القاموس : « الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب »

(٢) الجزء الأول ص ٥٤ — ٥٨

الحديث والتفسير المعروفة . ولكن الروح العامى والبيئة الثقافية . كانت كما أسلفنا من التخلف ، والجمود . بحيث وجد بين العلماء من يقول بتحريم القهوة مثل الشيخ على السيواسى . وكان من كبار علماء عصره . أهداه أصدقاؤه « فرق بن »[1] ، فى زواج ابنه فألقاه فى المرحاض .

الطب والهندسة

ولكن من الحق أن نقول : إن بعض العلماء كان فى ذلك الوقت ، يشتغل ويكتب ، ويؤلف ، ويلقى دروسه ، فى غير هذه العلوم التقليدية .

فيفهم من إشارة عابرة ذكرها الجبرتى ، فى ترجمة يوسف باشا حاكم الشام ، أن كتب الطب كانت تدرس فى الأزهر إلى قرب منتصف القرن الثالث عشر الهجرى . كما نجد الشيخ أحمد الدمنهورى ، وكان عالما عظيما ، جليل القدر ، ولى مشيخة الأزهر ، يدرس رسالة قسطا بن لوقا ، فى العمل بالكرة ، وأشكال التأسيس ، ورسالة ابن الشاط فى الإسطرلاب . كما نجد من مؤلفاته كتبا مثل : إحياء الفوائد بمعرفة خواص الأعداد ، والقول الصريح ، فى علم التشريح . والقول الأقرب فى علاج لسع العقرب . إلى غير ذلك من المؤلفات فى علوم الحساب ، والتاريخ ، والميقات ، والهندسة .

ونجد الفقيه الأصولى الشيخ على الطحان ، يؤلف منظومة فى الطب . وقد وجدنا الشيخ حسنا الجبرتى ، والد عبد الرحمن ، قد اتسعت ثقافته ومعرفته ، وبعدت بعداً كبيراً عن هذا النوع من المعرفة ، الذى التزمه أهل الأزهر . والشيخ حسن الجبرتى ، ولو أنه ليس من رجال الأزهر ، فإنه لم يكن بعيداً عنه . وكذلك الجبرتى ابنه مؤلف هذا الكتاب الذى ندرسه .

---

(١) زنبيل يسع ثلاثة قناطير ونصف قنطار .

obeikandi.com

الشيخ الفارس

كما نجد عالما كبيرا وأديباً كبيرا أيضا، ووجيها فى عصره، هو ابن النقيب، ينتجه إلى ثقافة مترفة . وهواية لم تزين العلماء من شغل نفسه بالالتفات إليها . وهى معرفة الخيل وأنسابها . فقد كان الشيخ على بن موسى ، المعروف بابن النقيب ، لأن أجداده كانوا نقباء بيت المقدس ، له معرفة جيدة بالخيل وأنسابها ، وعناية بتربيتها واستيلادها . وله حظيرة لا تخلو من نجائبها . وقد انتقل من بيت له بالقرب من المشهد الحسينى إلى آخر فسيح ، فى الحسينية ، ليجد لخيوله متسعاً ، وليشبع رغبته فى تربيتها ، واستيلادها .

وكان إلى ذلك عالمـاً بالفروسية . يجيد رمى السهام ، واستعمال السلاح ، واللعب بالرماح .

ومن العلماء من كان شاعرا غـزِلا يقول التوشيح فى الغزل والنسيب ، فيشتهر بين الناس . ويغنيه المغنون على الأوتار وآلات الطرب . وقائله ، مع ذلك ، شيخ الأزهر . وهو الشيخ أحمد العروسى .

كان ، كما يقول الجبرتى ، رقيق الطباع ، مليح الأوضاع ، لطيفاً ، مهذبا . وهو إلى ذلك ، شيخ الأزهر ورئيس العلماء ، يحبونه ويكبرونه ، وكان من مزاياه حفظه صحبة أصدقائه وبره بالمحتاج منهم . ولد فى سنة ١١٣٣ ومات فى شعبان ١٢٠٨

ومن شعره هذا التوشيح :

ماس غصـن البـان　　　زاهى الخـد

وتثنّى معجبـا

بين أفنان النّقا ، والرّند[1]

وأثيلات الربى

خلت بدراً فوق غصن مائس

قد أمالته نسيمات الصبا

ثم يقول الجبرتى : إن هذا التوشيح كان مشهوراً غاية الاشتهار فى الأغانى والأوتار . ولذلك لم يذكره كله .

(١) شجر طيب الرائحة .

وهناك شيخ آخر ، يصفه الجبرتى بأنه كان رئيس المحققين ، وعمدة المدققين ، النحوى ، المنطق ، الجدلى ، الأصولى . ويذكر له جملة من الكتب والحواشى فى الفقه والمنطق ، والجبر ، والتوحيد ، والتراجم . وكان مفتيا بالمدرسة المحمدية « أى مدرسة محمد بك أبى الذهب » ويلقى دروسه فى الأزهر ، وكان جيد التقرير ، غاية فى التحرير . ثم يقول ، بعد ذلك : إن الشيخ كان « يميل بطبعه إلى ذوى الوسامة ، والصور الحسان ، من الجدعان والشبان . فإذا رجع من دروسه ، خلع زى العلماء ، ولبس زى العامة وجلس بالأسواق ، وخالط الرفاق . سامحه الله » وهذا الشيخ هو أحمد الخليفى . ولد فى سنة ١١٣١ ومات سنة ١٢٠٩ .

غزل شيخ الأزهر

ومن كبار الشيوخ الذين اشتهروا بالغزل ، شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشبراوى .

ولد حوالى سنة ١٠٩٢ من بيت علم ومجد . وتتلمذ على الشيخ محمد الخرشى . وكان شيخاً للأزهر ، وعمره ثمانى سنوات . وتولى مشيخة الأزهر وهو فى الخامسة والأربعين . مع وجود عدد من كبار العلماء فى السن والعلم والمكانة . وكانت للشيخ الشبراوى منزلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة . نافذ الكلمة عندهم مقبول الشفاعة . كما كانت لأهل الأزهر والعلماء فى عهده حرمة كبيرة ومهابة ورفعة مقام عند الأمراء وعند الناس . وبنى داراً عظيمة على بركة الأزبكية حيث كان يقيم سادة القوم وسراتهم . وأنفق على داره تلك أموالاً جمة . وبنى ولده عامر داراً عظيمة أيضاً أمام دار أبيه الشيخ .

وكان الشيخ الشبراوى مغرماً باقتناء التحف والطرائف من كل شىء ، وخاصة الكتب النفيسة الجميلة الخط ، المتقنة التجليد . وكان ابنه عامر كريماً سخياً . يذبح فى مطبخه كل يوم رأسين من الضأن . ويقول الجبرتى : إن طلبة العلم فى مشيخة الشبراوى كانوا « فى غاية الأدب والاحترام » . وقد ألف بعض الكتب فى مدائح الأشراف ، وغزوة بدر ، ألفه بإشارة من الوالى على باشا حكيم . وله ديوان يحتوى

على غزليات ، وأشعار ، وأغان . كان مشهوراً يتداوله الناس، وكانت أغانيه ذائعة معروفة فى عصره وبعد عصره .

ومات الشيخ الشبراوى سادس ذى الحجة من سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة . ونجد حديثاً آخر عنه فى موضع آخر[1] .

وللشيخ الشبراوى شعر متوسط لم يذكره الجبرتى[2] قاله فى نقيب للأشراف اسمه السيد عبد القادر . قدم من تركيا ثم وجد مذبوحاً بعد ليلة واحدة .

وله فى الحنين إلى مصر شعر لابأس به ، نروى بعضاً منه فيما يلى : —

أعدْ ذكر مصر ، إن قلبى مولع
بمصر . ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرّر على سمعى أحاديث نيلها
فقد ردّت الأمواج سائله نهرا
بلاد بها مدّ السماح جناحه
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويداً إذا حدثتنى عن ربوعها
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
عسى نحوها يلوى الزمان مطيّتى
وأشهد ، بعد الكسر ، من نيلها ، جبرا
لقد كان لى فيها معاهد لذة
تقضّت ، وأبقت بعدها أنفساً حسرى

ومنه :

أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لى من النسيم بها ذكرا

---

(١) ص ١٦٢ من الجزء الأول .

(٢) ص ٢٢٢ من كتاب المنتخب من أدب العرب ، الجزء الأول

أما والقدود المائسـات بسفحها … وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما فى رباها من قوام مهفهف … علا ، وغلا عن أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لى هـذا السرور بأرضها … وقرّت عين أهواه مقلتى العبرى :—
لأعتنقنّ اللهو فى عرصـاتها … وأسجد ، فى محراب لذتها ، شكرا

وهذا شعر لا بأس به فى نسجه ومعناه ، وصدق عاطفته . ولا بأس به فى سماحته من شيخ الأزهر . وهو مما لم يروه له الجبرتى[1] .

العلماء وبطرس السادس

ولا أحب أن أنتهى من هذا الفصل عن « الثقافة والبيئة » قبل أن أسجل حادثا يشرف العلماء ، فى ذلك العصر . وهذا الحادث لم يسجله الجبرتى ولكنه وقع فى العصر الذى يؤرخه . وقد سجله على باشا مبارك فى خططه .

وخلاصة الأمر أن بطريرك الأقباط ، فى ذلك الوقت ، بطرس السادس ، كان شديداً على شعبه فى مراعاة الأمور الدينية . صلبا فى منعهم مما ينهى عنه الدين وخاصـة فى الزواج والطلاق . ووقع بين البطريرك وبين كبير الأمراء ، فى ذلك الوقت ، ابن إيواظ ، نزاع شديد على أمر من أمور المسيحيين فى مصر . بسبب تشدد البطريرك وصلابته . وناصر ابن إيواظ كثير من أهل الرأى والمكانة . وعرض النزاع على العلماء ، فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يطلب ، ونصروه على ابن إيواظ .

وكان ابن إيواظ رجلاً عادلاً ، حكيما ، فرضى حكم العلماء ، واستصدر من الوالى أمراً بتمكين البطريرك مما يطلب . وألا يتعرض له أحد بعد ذلك[2] .

وقد وصف الجبرتى أهل الأزهر ، من العلمـاء والطلبة ، بأنهم جمـاعة من

---

(١) فى مكتبة سوهاج مخطوط برقم ١٠٠ تاريخ ، يتضمن ثلاث رسائل . منها واحدة كتبها الشيخ عبد الله الشبراوى يرجو فيها إبقاء المرتبات التى كانت جارية على العلماء ، والفقراء ، وأرباب الطرق الصوفية . وعلى المساجد والزوايا والتكايا . وكان السلطان محمود خان أمر بحرمانهم منها .

والرسالة ، فى أسلوبها ، لا بأس بها . بالنسبة لما كان يكتبه العلماء فى ذلك الوقت .

ومخطوط مكتبة سوهاج هذا صوره معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(٢) ص ٨٥ جزء ٦ من الخطط التوفيقية ، طبع المطبعة الأميرية

« الأخلاط » . وهى كلمة من العسير تحديدها ، ولكنها ، على أى حال ، ليست مرضية لهم ، كما يبدو من سياقها فى حديثه .

الجبرتى بين الفرنسيين

وأجد من الخير هنا أن أنقل عن الجبرتى وصفه لهذه الزيارة التى زار فيها جماعة العلماء الفرنسيين فى مقرهم فى الناصرية إذ ذاك . ووصفه ما وجد من أحاسيس وعواطف من هذه الزيارة وما شهد فيها .

وسيجد القارىء أن هذه القطعة التى أنقلها طويلة ، وقد تكون ثقيلة أيضا إذا قيست بما يقرأ ، ويسمع . ولكنى أرجو أن يقرأها حتى يتمها ، لعدة أسباب . فهى نموذج مما كان يكتب العلماء فى العصر الذى نؤرخه . بل لعله نموذج من أجود ما كانوا يكتبون . والجبرتى مهما قيل فيه . ومع أنه لم يل منصبا من المناصب الأزهرية — سوى مشيخة رواق الجبرت — ولو أنه لم يؤلف كتابا كتلك التى كان يؤلفها العلماء إذ ذاك ، والتى ذكرنا طرفا منها من قبل . مع هذا وذاك فإن الجبرتى من العلماء ما فى ذلك شك . بل هو من كبارهم ومن أعلام الحياة الأدبية والعلمية لعصره . ومن قراءة هذه القطعة التى أنقلها من الجبرتى ندرك البون البعيد بين ما كان يفكر فيه العلماء ، وما كانوا يشغلون به أنفسهم من العلم ، وبين ما شهده الجبرتى عند علماء الحملة الفرنسية . وما أعجبه من تنسيقهم للكتب والمراجع والخرائط والصور . حتى فى المسائل الإسلامية التى لم يكن لهؤلاء العلماء شغل إلا بها .

ونستطيع أن ندرك — أو نتخيل — ما كانت تنال حياة الأزهر العلمية والثقافية والفكرية ، وما كانت تنال حياة مصر والشرق من بعد ، لو أن هؤلاء العلماء لم يغلقوا عقولهم وأذهانهم وعواطفهم حتى لا يتسلل إليها شىء من علم هؤلاء العلماء الفرنسيين ، أو منهجهم فى البحث ، والتنظيم ، والدراسة ، وذلك مجال يضل فيه التصور والخيال إلى مدى بعيد .

وما أريد بذلك أن ألوم العلماء فى القرن الثامن عشر ولا أن أشق عليهم فيه . وكيف ألومهم وما يزال خلفهم من الشيوخ مغلقة عقولهم وأذهانهم وآفاقهم بعد هذا الدهر الطويل وما جدّ فيه من علم ورأى .

وهذا هو الوصف : —

« وأفردوا للمدرّسين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات، والمصورين والكتبة والحساب والنشئين، حارة الناصرية ، حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قاسم باك ، وأمير الحج المعروف بأبي يوسف ، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد ، الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد . وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة[1] ففر مع الفارين وتركه . فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من المساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعزّ أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرر بمجيئه إليهم . وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد، والأقاليم ، والحيوانات ، والطيور ، والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم ، وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم، مما يحير الأفكار . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك. فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف . وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين . وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني

---

(١) يقصد دخول الفرنسيين مصر

وكذلك صور الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام كآياصوفية وجامع السلطان محمد ، وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك . وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه . وأبى أيوب الأنصارى ، وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى[1] الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها. وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان، والطيور، والنبات،والأعشاب،وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيرى ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات ، وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . وعندهم الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، الغالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموّه . وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة ، أخذت قدرا من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئىّ ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ، ومناظراتها . وأنواع الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن، وغير ذلك . وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى . وهم المصورون لكل شىء ، منهم أريجو المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ بجسم يكاد ينطق . حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك

(١) الآثار التى خلفها الفراعنة

غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر[١] ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضمون جسمه بذاته فى ماء مصقوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلا ، وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين، وصناع الدقائق. وسكن الحكيم روبا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب، والماجين، والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحيّة ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب والكيماوى ، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح ، وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الأربعة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاّءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات ، وبداخلها أنواع مستخرجات . ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ففلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئاً قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القربانة[٢] أزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع

---

(١) نابليون أو من يقوم مقامه .

(٢) البندقية .

فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلها فى الماء ، وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فرج ما فيها من الهواء المحبوس ، وفرقع بصوت هائل أيضاً . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية ، تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع . ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بهـا الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا مسك عُلاَّقتها شخص ، ولو خيطا لطيفاً متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتجّ بدنه ، وارتعد جسمه ، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس ، أو شيئاً من ثيابه ، أو شيئاً متصلا به حصل له ذلك . ولو كانوا ألفاً أو أكثر . ولهم فيه أمور ، وأحوال ، وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنـا . وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات ، والأخشاب ، وطواحين الهواء ، والعربات ، واللوازم لهم فى أشغالهم ، وهندساتهم ، وأرباب صنائعهم . ومكاناً آخر للحدادين . وبنوا فيه كوانين عظاما ، وعليها منافيخ كبار ، يخرج منها الهواء ، متصلا كثيراً ، بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة . وصنعوا السندانات والمطارق العظام ، لصناعات الآلات ، من الحديد والمخارط . وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديد العظيمة . ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافة . وعليها حق صغير مناق مثقوب ، وفيه ماء يقطر على محل الخرط ، لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك . وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقـة . مثل البركارات ، وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك » .

وفى الفصول الأخرى من الكتاب ، وخاصة الفصل الذى عقدناه عن « الحياة الاجتماعية والفكرية » فى الجزء الأول ، نجد أشياء أخرى عن العلماء وأهل الأزهر ، تزيدنا بهم وبه علما ومعرفة .

وقد سجل الجبرتى من حوادث أهل الأزهر طائفة من الوقائع فيها طرافة ، وفيها إبانة ودلالة ذات قيمة .

فمن ذلك : أن امرأة ذهبت إلى سوق الغلال ، فى باب الشعرية ، فاشترت قمحاً ، ودفعت ثمنه قروشاً . فلما انصرفت ، وجد البائع ماقدمته من القروش زائفاً . ثم عادت بعد ذلك بأيام ، فاشترت قمحاً ، ودفعت فيه قروشاً أيضاً . فاستصحبها البائع إلى الصيرفى فوجد نقودها ، مثل الأولى ، زائفة . فقبضوا عليها وذهبوا بها إلى الأغا ، ثم ذهب بها هذا إلى بيت الشيخ الشرقاوى . فلما حضر زوجها قال إنى أخذت هذه القروش من تابع الشيخ الشرقاوى . فغضب الشيخ واشتد غضبه . ولكن تابع الشيخ هذا ، عندما طلب ، غاب ثم اختفى . وانتهى الأمر إلى معرفة أن بعض أهل الأزهر هو الذى كان يشتغل بتزييف هذه القروش ، وأن هؤلاء المزيفين كانوا يملكون ست عشرة آلة للتزييف ، لم يعرف الحدادون كيف صنعت وقالوا : إنها من صناعة الشام .

وكان من باع شيئاً وتلقى ثمنه قروشاً ، ولم يكن فى يد الناس غيرها فى ذلك الوقت ، ذهب مع المشترى إلى الصيرفى وهو يقول : لنفحصها ، فربما كانت قروشاً أزهرية . . . !

وكانت هذه الحادثة فى شهر ذى الحجة من سنة ١٢٢٤ هـ .

وفى شهر المحرم من السنة التالية ، ظهر فى الأزهر أناس يقفون بالليل فى صحن الجامع . فإذا قام إنسان لحاجة ، منفرداً ، غصبوه ماله ، أو أى شىء يحمله . واجتهد الشيخ المهدى فى البحث عن هؤلاء السارقين غصباً ، حتى عرفهم . وكان منهم أبناء لعلماء ذوى وجاهة ، فستروا عليهم . وأظهروا شخصاً كان معهم ، ضعيف الجاه . فأخرجوه من مصر منفياً .

ثم حدث بعد ذلك بأكثر من سنتين ، أن سرق صندوق ، ومتاع ، من منزل امرأة رومية ، وكانت السرقات فى هاتين السنتين لم تنقطع ، حتى ضج منها الناس ، فاتهمت هذه الرومية ، فى صندوقها ومتاعها ، أشخاصاً من العميان

المجاورين ، فقبض عليهم الأغا وسألهم فقالوا لسنا بسارقين . ولكنا سمعنا الشيخ محمد الدرقاوى ، شيخ المغاربة المنفصل ، أى المعزول ، ومعه إخوته وآخرون ، نعرفهم بأصواتهم ، وهم يتذاكرون فى ذلك .

وأنكر شيخ المغاربة أول الأمر إنكاراً شديداً . ثم لجأ إلى مريب له من ذوى النفوذ مستجيراً به ، أن يستر عليه وعلى أولاده . ثم فتح خزانة عنده وأخرج منها أشياء مما سرق من قبل . فلما سئل عن صندوق المرأة الرومية ، قال أحضره آخر الليل . ثم جاء به ابنه آخر الليل يحمله له رجل فقير يرقّع الأحذية فقبض الشرطة على حامل الصندوق ، وفرّ ابن الدرقاوى . ولكن مرقع الأحذية استطاع أن يثبت على هذا الابن السرقة .

وكانت قضية فى « المحكمة الكبيرة » اجتمع الكثيرون لشهودها . كما تقدم إليها كثير ممن سرقت لهم أموال وحاجات . وقطعت فيها أيدى ثلاثة من السرّاق ، منهم ابن الدرقاوى .

ويقول الجبرتى : إنه فى هذا الوقت نفسه ، أخرجت طائفة من القوّادين ، والنساء . سكنوا حى الأزهر ، حتى إن أكابر الدولة وعساكرهم ، بل وأهل البلد والسوقة . جعلوا سمرهم وديدنهم ، ذكر الازهر وأهله .

أزهرى يدعى النبوة ... !

ومن الحوادث التى سجلها الجبرتى : أنه فى أوائل رمضان من سنة ١١٤٧ ظهر بالأزهر رجل يدعى النبوة . فأحضروه بين يدى الشيخ احمد العماوى . فسأله عن حاله . فقال الأزهرى : إنه كان فى شربين ، فنزل عليه جبريل ، وصعد به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأذّن جبريل فصلى الأزهرى ركعتين ، والملائكة من خلفه . فلما فرغ من صلاته أعطاه جبريل ورقة ، وقال له : أنت نبى مرسل . فانزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات . واتهمه الشيخ العماوى بالجنون ، ولكنه أصر على أنه عاقل ، وأنه نبى مرسل . فضربه الأزهريون ، وأخرجوه من الأزهر ، ثم سمع به عثمان كتخدا فأحضره ، وسأله . فقال ماقاله أمام الشيخ من قبل . فأرسل إلى المارستان أياما ثم طلبه الوالى ، عثمان باشا الحلبى ، وسأله أيضاً . فأصر

على أنه نبي مرسل . وبعد حبسه ثلاثة أيام ، دعا عثمان باشا العلماء ، واستجوبه أمامهم . فلم يتحول ، فأمره العلماء بالتوبة ، فامتنع ، وأصر . فأمر الباشا بقتله . وكان وهو يقدم للقتل يتلو قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وقد قيل في حادث هذا الأزهري المتنبئ ، شعر ، ومواليا ، أورد الجبرتي بعضاً منها .

استغاثة أبي مدين ... !

ومما رواه الجبرتي عن العلماء ، أن الشيخ علي الجزائرلي ، المعروف بابن الترجمان وكان عالما ، ذكيا ، يعرف اللغة التركية ، سافر إلى استانبول . وكانت الدولة في حرب مع روسيا . فأرسل خطابا إلى السلطان مصطفى يقول فيه : إن من قرأ استغاثة أبي مدين الغوث ، في صف الجهاد ، كان له النصر . فقال السلطان : إن الشيخ الذي كتب لنا هذا لابد أنه رجل طيب . وأنا أحب أن تحلّ بركته على جيوشي . بأن يسير بنفسه مع الجند ، ويقرأ في صفوفهم هذه الاستغاثة ... ! وفوجىء الشيخ بطلبه إلى الحرب ، فلم يجد بداً من السفر . وتقدم صفوف الجيش يتلو استغاثة أبي مدين . ولكن الهزيمة كانت على جيش الدولة ، وأسر الشيخ مع من أسر . وسيق إلى موسكو ، وبقي فيها أسيراً . أو كما يقول الجبرتي « لم يغثه أحد » حتى مات بها سنة ١١٨٥ .

وكان من المألوف أن يطلب الوالي ، أو السلطان ، إلى أهل الأزهر أن يقرأوا البخاري ، لنصرة ، أو رفع بلاء ، أو جدب . تبركا بهم . ففي شهر رجب من سنة ١٢٠٢ قدم القاهرة أغا من إسلامبول ، ومعه ألف قرش ، أرسلها السلطان عبد الحميد خان لتفرق على طلبة العلم في الأزهر ، ليقرأوا له صحيح البخاري ، ويدعوا له بالنصر . وليدعوا الله أيضاً أن يرفع عن الناس الطاعون . وبعد أيام كتب أهل الأزهر إلى الباشا ، قائلين : إن الألف قرش لم تكف ، فزادها ثلاثة آلاف . وأحضروا أجزاء البخاري وقرأوها ، ولكن الطاعون لم يرفع ، بل زاد وفشا .

وفي رجب ، أيضاً ، من العام التالي ، ورد مرسوم من الدولة ، يأمر بقراءة صحيح البخاري في الأزهر ، لينصر الله السلطان على الروسيا . ويأمر بأن يدعوا أهل

الأزهر بذلك ، بعد الأذان لكل صلاة . فأمر الباشا باختيار عشرة علماء ، من مختلف المذاهب ، لقراءة البخارى فى كل يوم . ورتب لكل واحد منهم عشرين نصف فضة . ووعدهم بتقريرها لهم على الدوام ، بفرمان من السلطان .

وفى شهر ذى القعدة ، من سنة ١٢٣٢ تلقى أهل الأزهر أمرا من محمد على . بقراءة البخارى ، لينصر الله ابنه إبراهيم ، فى حرب الحجاز ، وكانت أخباره انقطعت فترة طويلة ، فلما انتهوا من القراءة « نزل لهم » عشرون كيساً فرّقت بينهم .

ملابس العلماء والإشراف على الأزهر

وقد وصف الجبرتى ، فى مواضع متفرقة ، زى العلماء . الذى كانوا يتميزون به عن بقية الناس . وأبرز مافيه العمامة الكبيرة . فقد أطنب فى وصف عمامة الشيخ السادات خاصة ، وضخامة حجمها . والصور التى سجلها المصوّرون فى الحملة الفرنسية لكبار العلماء ، فى ذلك العصر ، تشهد بذلك .

وكان للأزهر ناظر ليس من العلماء ، بل من المماليك . يتولى الإشراف على نظافة الأزهر وفرشه . والعناية بمن فيه من الغرباء . إلى غير ذلك من الأمور الإدارية . وقد أبطلت هذه الوظيفة أيام الفرنسيين . ثم أعادها محمد على ، فى أول عهده . واختار لها الشيخ محمدا الأمير .

وكان مما يقدم لطلبة الأزهر ، من ألوان الطعام ، الهريسة . خصص عبد الرحمن كتخدا وقفاً لطبخها ؛ وإطعام الأزهريين منها ، فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، كما ذكرنا فى ترجمته .